حفريات في اللغة

قد تفيد المؤرخ

تأليف : محمد شفيق



حفريات في اللغة

قد تفيد المؤرخ

تأليف : محمد شفيق



تقديم

نـنـطـلـق، لـو تـسـمـحـون، مـن مـعـطـيات جلّها مـعـروف لـدى الجـمـيع، لـكــنّ الـتـذكـيـر بـوجـودهــا وتـداخـلـهـا وتـكـامـلـهـا أمـر ضــروريّ، حـتـى لا تـظـهــر الـفـرضيّـة الـتـي نـحـن بـصـدد عــرض عـنـاصـرهـا وكـأنـهـا انـبـنـت عـلـى نـوع مـن الـفـراغ.

I - المعطيات الاثرية:

1 - "أدبنــي ج. ئـدبنــان، "ئـدبنــان "adebni pl. idebnan1 - idebnan " قبــور فــي قلب الـصـحـراء الـكـبـرى، يرجع عـهـدهـا إلـى مـا قبـل الـتـاريخ. واحـدهـا يُسـمـى "ادبنــي" بـالـلـغـة الامـازيـغـيـة. وهـي عـبـارة عـن تــلال صـغـيـرة مـن الحـجـارة المـتـراكـمــة، تـخـتـلـف احـجـامـهـا واشـكـالـهـا الـهـنـدسـيـة؛ يـتـراوح طـولـهـا بين بـضـعـة امـتـار وثـلاثـمـائـة مـتـر، وتـتـخـلّـلـهـا ممرات و"حـجـرات". لـكـن عـلـوّهـا لايـتـجـاوز بـضـعـة امـتـار. يـوجـد "ئـدبـنــان" بـكـثـرة فـي الامـاكـن الآتـيـة اسـمـاؤهـا: "تـي ن كـاويـا Ti n Kawya" قـرب واحـة "غـاط Ghât" بمـنـطـقـة "اجـر Ajjer" غـربـي "الـفــزان Le Fezzan" فـي لـيـبـيــا؛ وقـريـة "تـيـط Tîtt" فـي "اهـكـار Le Hoggar". وسـط الـصـحـراء الجـزائـريـة؛ والمـكـان المـسـمـى "تـي ن غـرهـوه Ti n Gherhuh" (تــي ن غــرزوز بـالـنـطــق الامـازيـغـي المـغـربـي). بـين "ادرار Adrar" و "اهـكـار Le Hoggar".

هــذه المـقـابـر الأثـريـة لا تـزال الـنـســاء الـتـركـيــات "Touarègues" يـتـخـذنـهــا مــزارات: تـتـجـرد الـزائـرة فــي بيـتـهـا، مــن كـل "حـرز" كـتـب فـبـه اســم اللّه، ثـم تـقـصـد "ادبـنـي". وحـين وصـولـهـا إلـيـه تـقـرأ بـعـض

التعـــازيم، متمالكة عن ذكر الله، ثم تنام (او تتناوم) بجوار "ادبني". واثنـــاء نومهـــا (او تناومها) ينكشـــف لها - في حلـــم - ما كانت تريـــد أن تعرفه عن المســـتقبل او عن غائب من الأهـــل أو الأقارب. Camps, II, 48, 49; Camps, I, 66,67,68,69; Foucauld, II,) (793, 794, Timekelkelt; De Foucault, I, 159, édbni. أمـــا في المغـــرب، فيوجد قبر أثري واحد من هذا النوع قرب واحة الطاووس، في اقصى "تافيلالت" (Camps, II, 61).

المحصـــل هـــو أن "ئدبنـــان" قبـــور (او ضرائـــح) مبنيـــة بالحجارة المتراكمـــة في غير نظام معين، لها علاقـــة بالديانات القديمة، بما أنها لا تزال تتمتع بنوع من القدســـية، يرجع عهدها إلى "ماقبل التاريخ".

2 - "البازينات، les bazinas". - "البازينا" عبارة عن قبر يعلوه هـــرم جد صغيـــر مربع القاعـــدة، أو مخروط اســـطواني القاعدة. "البزينـــا" مبنيـــة بالحجـــارة المنضوضـــة المتراصّة التـــي لا ملاط معها. وهي مدرّجـــة او غير مدرجة. علوها حوالي المتر الواحد في المتوســـط. يرجع عهـــد البازينات إلى ما قبـــل التاريخ ايضا. توجد بكثرة في منطقة الفزان، بالجهة الجنوبية الغربية من ليبيا، وفي منطقة "الشـــلف" الاعلى بالجزائر. (Camps, II, 63, 64; Camps I, 84, 85, 235, 236).

نســـجل أن "البزينـــات" متقنـــة البنـــاء بالقيـــاس إلـــى ما هو ملحوظ في بناء "ئدبنان"، وأنها منتشـــرة في "الشمال" (نسبيا) أكثر مما هي منتشـــرة في الجنوب، وأنها أقدم من الاهرام المصرية،

بما أن عهدها يرجع إلى ما قبل التاريخ، بينما عهد الاهرام المصرية محصور في الزمن المؤرخ له، بما أن أقدم هرم، حسب ما هو معروف إلى الآن، هو هرم الملك "جوسر Djoser" (حوالي 2700 ق. م.) المنتمي إلى الاسرة الثالثة.

3 - الضرائح الكبرى المخروطية الشكل الاسطوانية القاعدة. اثنان منها لا يزالان قائمين سالمي البناء. يوجد أولهما على بعد 100 كلم، تقريبا، غرب العاصمة الجزائرية، وغير بعيد من الساحل المتوسطي. هو ضريح ملكيٌّ موريتانيٌّ، لكن السكان المحليين سموه ب "قبر النصرانية"، وهي تسمية اعتباطية تذكرنا بأن سكان جبال ازرهون لا يزالون فيما بينهم يطلقون اسم "قصر فرعون" على انقاض "وليلي Volubilis". "قبر النصرانية" عبارة عن مخروط من الحجارة المتراصة المنضوضة، تحمله قاعدة اسطوانية ذات سوار منحوتة، قطرها 62 مترا. أما ارتفاع الضريح فحوالي ثلاثين مترا. وبالداخل دهليز حلزوني ينتهي بسالكه إلى حجرة صغيرة تتوسط المبنى. ويوجد ثاني الضريحين المعروف باسم "الضريح النوميدي" في المكان المسمى ب "ميدراسن Médracen" قرب جبال الاوراس، بالجزائر أيضا. قطر قاعدة الضريح النوميدي 59 مترا، وعلوُّه 19 مترا؛ وهو كثير الشبه بقبر النصرانية. هذان الضريحان مدفنان لملكين أو أميرين أمازيغيين عاشا قبل اكتساح الرومان لنوميديا وموريتانيا بقرن أو قرنين حسب ما قدره المؤرخون (Camps, I, 97, 98, 157, 152, 222, 223).

أما في المغرب فتوجد بقايا لهذا النوع من الضرائح في

قلب سهل "اسايس" (سايس، Le Saïs)، داخل المثلث الذي ترسمه النقاط الثلاث: فاس، الحاجب، مكناس، خاصة بالمكان المعروف اليوم باسم "سوق القور Souk El Gour" على مقربة من قرية "عين تاوجضاط". وليس بالصدفة أطلق عرب "سايس" اسم "القور" على تلك البقايا، التي لم يعد قائما منها إلا أجزاء من قواعدها، لأن "القارة، التي التي جمعها قور، كما يقول لسان العرب"، هي الأكمة، أو هي الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، أو هي من الأصاغر من الجبال والأعاظم من الآكام... ويوجد أثر أحد هذه الضرائح في سهل الغرب على شكل تل مغطّى بالتراب، قرب مدينة سيدى سليمان (Decret et Fantar, 70).

هذه الضرائح شيدها ملوك أمازيغيون، نوميديون وموريتانيون. شيّدوها في عصور تاريخية حددت على وجه التقريب فيما بين القرنين الخامس و الأول قبل الميلاد. هي أضخم بكثير من "ئدبنان" ومن "البزينات" ومتميزة في هندستها عن أهرام مصر، لكنها تتشابه و"ئدبنان" و"البازينات" و"الأهرام" المصرية في تخطيطاتها الأساسية العامة التي تطورت مع الزمان من البساطة إلى التعقيد دون أن تفقد ميزتها الأولى، وهي اعتماد البناء بالحجارة، وتخليل المبنى بالممرات.

4- "الركامات" المغربية الصغيرة المسماة "ئكركورن، ئكركار، ئشرشار، ئشركورن، ئشرشارن". - واحدها "أكركور، اشرشور، أشركور"، الذي عرِّب فصار "كركورا"، وتصغيره "تاكركورت". حتى الثلاثينات من هذا القرن العشرين كان المغاربة يركمون الحجارة في كل مكان دفن فيه مجهول، خارج المقابر، أو اغتيل فيه إنسان

معــروف الـهـويـة ونـقـل جـثـمـانـه إلـى المـقـبـرة. وكـان الـركـام الـذي ركـم لهــذا الغــرض يعتبر حرما؛ وكانــت التقاليد تفرض أن لا يمســه هدم، وأن يرد اليه من يمر به كل حجرة إنفصلت عن باقي الحجارة. وبعبــارة اخــرى، كانــت ل "أكركــور" أو "تاكركورت" أو "أشرشــور" قدســيته (tas de pierres sacré: Destaing, 338; Jordan, 124; Taïfi, 344). وقد عرفت شــخصيا، في صغري، ثلاثة "ئشرشورن". وســنرى فيمــا بعــد ما يربــط هــذه "الركامــات" ب "ئدبنــان" و "البازينات" و "الضرائح" النوميدية الموريتانية، وبالاهرام المصرية.

5 - الأهــرام المصرية. - وهي في غير حاجة الى تعريف، من حيث هندســتها ولا من حيث تاريخها. لكنا سنتساءل بعد حين عن مدلولها اللغوي الأصلي.

المســتنتج من الرّبط بين هذه المعطيات الأثرية الخمســة، ومــن المقارنــة بينهــا، هــو أنها، علــى تفــاوت أزمانهــا واختلاف أشــكالها، تنتمي إلى نمط من القبور موحّد المنشــإ امتد مجاله عبــر العصــور، من قلــب الصحــراء، متّجهــا في تطــوّره وجهة الشــمال الشــرقي من جهة، ووجهة الشــمال الغربي من جهة أخــرى؛ فتفرعت عنه أنماط ثانويــة، لكنه ظل هو هو، يعتمد ركم الحجارة أو التشييد بها. وبما أن الأشياء بأضدادها، لا تظهر وحدته إلا عنــد التقائه في المجال بنمط آخر يعتمد الحفر في الأرض، على شــكل مطامير، أو في الصخور والأجرف، على شــكل ما ســماه الســكان المحليون بالحوانيت؛ وهو نمط من الواضح أنه مستورد من الشــاطئ الشمالي والشمالي الشرقي للبحر المتوسط؛ مجاله المغاربي محصور في الســاحل الشــرقي الجزائري وفي الســاحل

التونسي (Camps, I, 73, 74). ولا يهمنا نحن، في هذا الحديث، إلا النمط الأول.

II- المعطيات التاريخية:

الإلــه "أمــون، Ammon, Amon" ظل هو أكبر آلهة مصر القديمــة طوال تاريخ مصر القديمة؛ فكأنه هو الأصل، وما ســواه فــرع. تفرّع عنــه "راع Râ, Rê" فصار "أمــون راع Amon-Rê" في عهد الأســرة الرابعة. حــاول "أخ ن اتون Akhenaton" أن يحدّ من جبروته ومن نفوذ كهنته، فأخفق. فانتضم الكهنة بتتويج "توت عنــخ امــون، Tutankhamon" بعد وفاة "أخ ن اتــون". ومن جهة أخرى، كان اليونان يشــخصون "Amon" في أعظم آلهتهم، وهو "زوس، Zeus". كما كان الرومان يشــخصونه فــي أكبر آلهتهم، وهــو "جوبيتيــر، Jupiter". وأكثــر من هــذا هو أن عــددا من أكابر اليونــان اتخــذوا "أمون" إلها لهــم متميزا عــن "زوس" وحافظوا لــه علــى اســمه الأصلي، كمــا فعل، مثــلا، القائد العســكري الإســبارطي "لوســاندروس Lusandros" المتوفى سنة 395 ق.م. (Auboyer, I, 347). "أمون" هذا عرف له معبدان رئيســيان اثنان، معبــد "ثيبة Thèbes" فــي صعيد مصر، ومعبد واحة "ســيوه". فمــا هو أقــدم المعبدين؟ وما هــو الأصل فيهما ومــا هو الفرع؟ كان المؤرخــون يعتقدون أن الأصل هو معبــد "ثيبة"، بحكم الميل إلى الاعتقاد بأن مصر هي مصدر الإشعاع في البداية والنهاية. لكنهــم تراجعوا عن هذا الــرأي، وأخذوا يرجّحون أولوية "ســيوه" وأقدميتهــا. (Camps, I, 215, 216). فبالإضافــة إلــى ما احتجوا بــه من الحجج فــي تغيير رأيهم، أرى من الفائــدة أن يلفت النظر إلى معطيين تاريخيــين اثنين. أولهما أن اليونانيين القدماء كانوا يسمون الامازيغيين الليبيين، سكان "سيوه" وماجاورها بالأمونيين

"Ammonioi" واشــتقوا من الاسـم نفسـه "ammoniac" الدال على ملح تفور به عيون المياه في سيوه (Bailly, 100). وسيوه الآن مجموعة واحات، إحداها تسمى "أغرمي، Aghormi"، وبها توجد بقايا معبد "أمــون" (Laoust, V). أما المعطــى التاريخي الثاني الذي يســتحق الاعتبار فهو أن "الإســكندر الأكبر Alexandre"، حينما اكتسح مصر، وصاه مستشاروه - ومنهم "أرسطو"، كما هو معروف - وصّوه بأن يعرِّج على ســيوه ويأخد ما يشبه البيعة مــن كهنة "أمون" فــي معبده، إن كان يريد أن يســتتبَّ له الأمر في مصر كلها؛ ففعل، وعبر إلى ســيوه، بجحافله، أكثر من 600 كيلومتر من الأراضي الصحراوية القاحلة. وإلى ذلك أشار الشاعر العربي الجاهلي، بقوله (لسان العرب، لابن منظور، مادة ثأط):

بلــغ المشــارق والمغــارب، يبتغــي ** أســباب أمر مــن حكيم مرشد.

فأتى مغيب الشــمس عند مآبها ** في عين ذي خلب و ثأط حرمد.

يقول "اللســان" بأن البيتين لأمية (بــن أبي الصلت) أو لِيُتبَّع، "يصــف ذا القرنين". ونضيف نحن أن الشــاعر أشــار إلى "أمون" بقوله "من حكيم مرشـــد" وأشــار إلى عيون سيوه الفوارة بالمياه المثقلــة بملح الأمونيــاك بقوله "في عين ذي خلــب و ثأط حرمد"، لأن الخلــب والثأط الحرمد هما الحمأة والطــين. والمهم هو أن زيارة الإســكندر لســيوة ظل صداها يتردد في المشــرق مــا يقرب من ألف ســنة، على الأقل، فســمعه عامة النــاس بتفاصيله، حتى

إنه ألهم شاعرا جاهليا، في قلب الجزيرة العربية، قول البيتين المذكورين المتميزين بوضوحهما. ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث المتمزغ "روني باصي René Basset" سجل في أوائل هذا القرن أن "الكوانش Les Gouanches"، سكان الجزر الخالدات، كانوا أنذاك يزالون يذكرون اسما، هو "أمان Amman"، بمعنى السيد والمولى والرب، ويقرنونه في تعابيرهم باسم الشمس (Camps, I, 216).

والحاصل من هذه المعطيات التاريخية هو أن قرائن مهمة ترجح كفة أسبقية "أمون" السيوي، وتجعل مصدر الإشعاع الديني الأول هو معبد سيوه، الذي في قلب الصحراء؛ وبذلك تجعل سيوه هي أم الازدهار الحضاري المصري بحكم سبقها إلى فرض العقيدة. لكن المؤرخين، مع ميلهم إلى هذه الأطروحة الجديدة لم يحسموا بعد بصفة نهائية (Camps, II, 158, 159).

III- معطيات جغرافية تاريخية، تؤيدها معطيات لغوية:

تبرهــن طوبوغرافية مناطــق الصحراء الكبــرى، كما تبرهن نوعية المرسبات الصخرية الراجعة إلى العهدين الحجريين، القديم والجديـد، على أن ما هو معــروف اليوم باســم الصحراء لم يكن صحراء في القــديم. كانت تلك المناطق تتمتع بمناخ رطب، وكانت مكســوة بالاعشــاب المعشوشــبة، وبالأحراج. بل، وكانت بعض الجهات فيها تنبت أنواع الشــجر، كالســنديان، والجــوز، والزيتون، والميــس، والصنوبر، والزيزفون، وجار المــاء، والبوقيصا. وتبرهن وفرة الرســوم والنقــوش الأثرية (مــا يقرب مــن 3000) المحفوظة على صفحات الجــدران والأجــراف الصخرية أن وحيــش الصحراء كان متنوعا، وأن جيلين، أي جنســين، من البشــر تعاقبا على "تعمير" الصحــراء، أولهما أســود اللون، اختفى في أواخر الألف الســابع قبــل الميلاد لأســباب ما؛ وثانيهمــا أبيض البشــرة يتجلى وجوده هناك انطلاقا من الألف الســادس قبل الميلاد؛ مما كان يميزه ظهور الوشــم على أعضاء الأشــخاص الذين رســمت لهم رسوم في عهــده (Camps, I, 40, 41, 42, 43, 44; H.J.Hugot, I, II). ويؤيــد ما يخبرنا به الجغرافيون والمؤرخون معطيات لغوية امازيغية، تدل على أن الصحراء الكبرى لم تكن صحراء منذ الأزل. هناك أماكن بعينهــا تســمى "تيــط Tîtt" أي عين المــاء، أو تلمــاس Tilmas"، وهــو جمع تالمســت Talmest"؛ "تيلمــاس" إذن هي "عيــون الماء". (وبالإشــارة، لهذا الجمع ما يرادفه، وهو "تيلماســين، تيلمســين، الذي به ســميت "تلمســان"، مع تحريف بســيط). وهناك أماكن

تحمل اسـم شـجر لا ينبت إلا حيث الماء، كاسم "تيشيط Ticîtt, ticitt"، الـذي معناه الخروب. وأكثر من هذا أنـه يوجد بموريتانية الحالية، منطقة قاحلة شاسـعة تسـمى "تاكَانت Tagant"، أي الغابة...

إذن، نشـأت في الصحراء حضارة بدائية أحدثها إنسان أبيض منذ العهد الحجري، إذ كانت المنطقة المعروفة بالصحراء خصبة، تشـهد بذلك آثـار متعـددة. كان ذلك الإنسـان يمـارس القنص والقطاف (وُمّود ummud بالامازيغية)؛ ثم مارس تربية المواشـي؛ ويظهر أن تغير المناخ وانتقاله التدريجي من الرطوبة إلى الجفاف النسـبي اضطر ذلك الإنسـان إلى نوع من التخصص في تربية الضـأن، لأنه قادر على التنقل من اجل الانتجـاع... فلا غرابة في أن يتخذ ذلك الإنسـان صورة الكبش إله له، ولا غرابة أن تصحب تلك الصورة الإله ذلك الإنسـان في نزوحه البطيء المستمر نحو الشـمال وتتبعه المناطق الرعوية في تقلصها. ولا غرابة أن يتخذ لذلك الإله معبد قار، في نهايـة المطاف الصحراوي، بمكان تتوفر فيه العيون والبحيرات؛ فكان معبد "امون"، معبد "سـيوه". هذا كله في "ما قبل التاريخ".

هـذا، وتخبرنا آثـار العهديـن الحجريين بأن مصـر، أو المنطقة المعروفة الآن بمصر، لم تكن في "ما قبل التاريخ" (او حتى في "ما قبيـل التاريخ") أكثر "حضارة" من المناطـق "الصحراوية" الأخرى مـا لم تضح تلك المناطق صحراويـة قاحلة بالفعل. أما منطقة المغرب الكبير، أي المنطقة التي تحادي الصحراء الكبرى من الجهة الشـمالية الغربية فقد تأخر عن الإسـهام في إنشـاء الحضارة

"الصحراوية" بألفي سنة حسب التقديرات (Camps, I, 56). ويغلب على الظن أن غطاءه النباتي، الكثيف آنذاك، هو السبب، نظرا لما كان يؤويه من السباع الضارية. وعلى أي، المعروف هو أن الهجرة إليه من قبل "الصحراويين" ظلت مستمرة باستمرار التصحر.

الخلاصة أن الحضارة الصحراوية القديمة طرأ عليها تحوّل ألجأها إلى التقلص والاستقرار في الواحات، من جهة، فتميزت بها واحة سيوه (أمون)، وظلت شاهدة لها ممثلة احسن تمثيل؛ وانزوت في وادي النيل، بحكم توفر الماء، فتطورت هناك وترعرعت، من جهة ثانية. واستمرت في نزوحها تجاه المغرب الكبير حيث حافظت، بحكم الجغرافيا والمناخ، على اعتمادها تربية الضأن خاصة، من جهة ثالثة. لاتزال قبائل مغربية تحمل اسم "أيت بو وولي، Ayt Bu-wulli"، أي "بني صاحب الضأن" (وهو المترجم إلى العربية ب "الشاوية"، في المغرب وفي الجزائر، كما تُرجمت أسماء أخرى للأماكن أو للقبائل أو للأناسي.

IV- "معطى" اسطوري، أو تاريخي، له دلالته.

يحكى أن أحد أكاسرة فارس هو الذي اتخذ التاج غطاء لرأسه حتى يتميز به في مجلسه عن عامة القوم. فلما خلفه من خلفه أمر بأن يصنع له تاج أكبر من تاج سلفه... وهكذا دواليك، إلى أن أصبح التاج أثقل من أن يحمله رأس الكسرى؛ فعلق بسلسة من ذهب إلى سقف قاعة الاستقبال فوق كرسي المُلك. لكن حجم التاج استمر في التضخم من كسرى إلى آخر، إلى أن صار تعليقه خطرا على الجالس تحته. فأوحى مهندس القصر ببناء سقف قاعة العرش على شكل تاج. وهكذا أُحدثت القبة، واستغني عن التاج. ولا يخفى ما آل إليه حجم عمائم العثمانيين الأتراك من الضخامة في تطوره من سلطان إلى سلطان.

V - المعطيات اللغوية:

1 - المعطيات اللغوية الثابتة المحققة.

أ- علاقـة اللغة المصرية القديمة بالامازيغية أمر محقق، تتجلى في المعجم بصورة ما، لأن المفردات تتطور بسرعة في أشكالها الصوتية ومضامنها الدلالية. ومع ذلك لا تزال أكثر من مائة لفظة مشتركة المعاني في اللغتين: "ئغص، ئقص"، العظم؛ و"ميس"، ابن...؛ و"فود" الركبة؛ و"سو"، اشرب؛ و"أوي..."، جئ؛ و"سين، اثنان...إلخ. (Lefèbvre, 55, 116, 238, 240, 361, 361, 384, 391). وتتجلى تلك العلاقة بصورة أوضح لا غبار عليها في وحدة جل الضمائر، المتصلة منها والمنفصلة، ووحدة عدد لا بأس به من حروف المعاني، كحرف الإضافة (ن، n) وحرف التشبيه (م، ام، am, m)، وحرف الغاية والانتهاء (خر، غر، xr, ghr (Lefèbvre, 51, 58, 104, 251, 363)). وتتجلى بالخصوص، وبصورة قاطعة، في ما سميته، بالعربية، في النحو الأمازيغي، "الصيغة الموصولية" و"الصفة المشبهة بالفعل" (شفيق، 121 إلى 136. Lefèbvre 244 - 233,). وتتجلى كذلك في وجود أفعال ينحصر عدد حروفها، أي عدد حروف مادتها الاساسية في حرفين اثنين (شفيق، 227. 114, Lefèbvre -). ومما لفت الأنظار أن اللهجة الأمازيغية التركَية (touareègue)) هي الأكثر قرابة من المصرية القديمة (Lefèbvre, 3). والواقع هو أن التركَية هي اللهجة الأكثر

حفاظا على جذور الأمازيغية وأصولها، وذلك بمفعول انعزال التوارك وانزوائهم في "جزرهم" الصحراوية. لا يزالون يستعملون لفظة تعني "القطاف، la cueillette" في مدلولها الاصطلاحي التاريخي، وهي لفظة "ؤمود ummud" التي معناها: "الفواكه التي تجنى من الغابات والحقول دونما غرس ولا زراعة" (De Foucauld, 1153).

ب- لغة سكان واحة "سيوه" ("مون" قديما) هي الأمازيغية، لا يزالون يتكلمونها، "فلا يتعلم أبناؤهم العربية إلا عند دخولهم المدرسة" كما يقول السيد الذي يراسلني منها. عدد سكان الواحات التابعة لسيوه اليوم ستة آلاف على وجه التقريب. لم تندثر عيون "سيوه" ولا بحيراتها المحملة مياهها بالاملاح المعدنية وقد وضع المتمزغ الفرنسي "لاووست Laoust" معجما للهجة السيوية في أواخر العشرينات، طبع سنة 1931.

ج- أحد المعطيات الأساسية في هذا البحث، ولعله هو المعطى الرئيسي، وهو بيت القصيد، يتجسد في الفعل الأمازيغي الذي معناه: بنى، يبني. ذلك الفعل هو ئسكا iska، ئصكا، ئزكا، ئصشا، منطوقا هكذا في الماضي بالسين أو الصاد أو الزاي المفخمة، حسب اللهجات. صيغة الأمر فيه هي: سكو sku، صكو، زكو، صشو... أو سك sek. معناه بالضبط في اللهجات - إلا واحدة - هو: بنى، شيد؛ أو: نصب، أقام. (Taïfi, 628; Delheure, II, 200; Delheure,I, 314; Boudot - Lamotte, 526). أما اللهجة التي فيها للفعل "ئسكا" معنى آخر فهي التركية بالذات، أي اللهجة الأكثر احتفاظا بالاصول؛ معنى

"ئسـكا، ئزكا" فيها هو: دفن، أقبر، قبر. ومن مشتقاته: "تازكاوت، tazêkkawt"، بمعنى الدفن والاقبار؛ و "ازكا azêkka" بمعنى القبر. (De Foucault, 1950, 1951) والملاحظ هو أن ل "أزكا" المدلول نفسه في اللهجة القبائلية، مع أن الفعل "ئزكا" قد أميت فيها، حسب ما يظهر. (Dallet, 939). ويؤنث "أزكا" ويصغر على الوزن القياسي: "تازكا tazêkka" أو "تازكات tazêkkat". فهل بالمصادفة أطلق اسم "تازكا"، في المغرب، قرب مدينة تازا (تازة)، على جبل هرمي الشكل مدرج حينما ينظر إليه من جهة الغرب؟

2 - المعطيات اللغوية التي في حاجة إلى مزيد من الدرس والتحقيق.

أ- صيغة اسم الاله "أمون" صيغة أمازيغية، سواء أشددت الميم فيها أم خففت. ولكن ما معنى هذا الاسم، وهل له من أثر في اللغة؟

ب- "أبازين، abazin" هو الطعام القفير الذي لا إدام معه، كالخبز الحاف مثلا (Taïfi, 42)؛ ينطق في التركَية "أباهين" لأن الزاي فيها من الغالب أنه يقلب هاء (De Foucault, I, 37, abahin). فهل من صلة لغوية بين "أبازين، abazin" (الطعام بلا إدام) وبين "بازينا، bazina" (البناء بلا ملاط، en pièrres sèches)؟ ومن سمى "البازينات، les bazina" بهذا الاسم، ومتى سماها؟

ج- "ئغرم، ighrem" معناها القرية، والحصن (le ksar). وجمعه "ئغرمان، igherman". فما قد تكون العلاقة بين هذا الجمع وبين الامازيغيين الليبيين القدماء الذين كان اليونان

والرومان يعرفونهم باسم "Garamantes"؟ مع التنبيه إلى أن الحروف الثلاثة الأخيرة في "Garamantes" أي "tes" ما هي إلا زيادة اعرابية، أما الأصل الذي لا علامة اعراب معه فهو "garaman". ومما تجدر الاشارة أليه أن اليونان كانوا ينسبون أولئك الأمازيغيين إلى جد أعلى اسمه "Garamas". كانوا يعتقدون أنه من أبناء الإله "Apollôn" المتجسد في الشمس (Gaffiot, 703 - Bailly, 389). ثم يجب التذكير بأن واحة "سيوة" التي توجد فيها بقايا معبد "أمون" اسمها الحالي هو: أغرمي، Aghormi".

د- سكان "سيوه" الحاليون يسمون أنفسهم "ئصيوان، Isiwan" (Laoust, V). واللفظة جمع، مفرده "أصيوان، asiwan" ومعنى "أصيوان" هو ذكر الحدأة (le milan). يقول ابن المنظور في "لسان العرب": الحدأة... طائر كان يصيد على عهد سليمان،... وكان من أصيد الجوارح، فانقطع عن الصيد لدعوة سليمان. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يخبرنا التاريخ بأن الإله الحافظ للملكية الفرعونية هو "هوروس، Horus" المجسد في صورة طائر جارح يرى المؤرخون أنه صقر (faucon)، وأرى أنا أنه حدأة (milan)؛ وحجتي في ذلك أن الاسم المصري يعني جنس الجوارح عامة، وأن المقصود به هو الطائر الجارح الكثير التحليق والدوران (l'oiseau planant). والحدأة أكثر تحليقا ودورانا في السماء من الصقر ومن أي جارح آخر. ولكن رأيي ليس إلا وجهة نظر تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبراهين، وتحتاج بالخصوص إلى ما يثبت أن بين "هوروس، Horus" و"ئصيوان، Isiwann" علاقة تاريخية واضحة المعالم.

هـ - لفظة "واحة" العربية معربة عن اللفظة المصرية

العريقة في القدم "وحيت، wh'yt" التي كانت تعني القبيلة من سكان البادية. (Lefèbvre, 21). لما تحول المعنى إلى ما هو مفهوم اليوم من "الواحة" في اللغة العربية؟ أليس لأن كل عشيرة (أو قبيلة) من العشائر (أو القبائل) التي كانت تجوب الصحراء إذ كانت الصحراء خصبة اضطرت بمفعول الجفاف التدريجي إلى أن تستقر، استقرارا نسبيا، في منطقة محدودة بحدود المرعى، في مرحلة أولى، ثم إلى أن تنزوي وتركز سكنها في "رقعة" ظلت وافرة الماء، اثناء مرحلة ثانية؟ فلربما يكون ذلك هو السبب في مغايرة المفهوم العربي العصري للمفهوم المصري القديم من كلمة "واحة - وحيت". أطلق المصريون اسم "وحيت" على "القبيلة" إذ كانت القبيلة لا تزال قبيلة تبحث عن أسباب الاستقرار في منطقة ما، ولم تقتبس العربية اسم "الواحة" من المصرية إلا بعد أن تم استقرار القبيلة في "الرقعة" الصحراوية الخصبة التي استولت عليها. فصارت كلمة "الواحة" العربية يفهم منها "الرقعة الخصبة في الصحراء". ولنا في تاريخ القسم الغربي من الصحراء الكبرى ما يتقابل مع هذا كله إلى حد كبير؛ توجد معطياته في اللغة الأمازيغية، وفي اسماء القبائل.

قبائل "زناكا، Znaga" المعروفة في تاريخ المغرب الكبير هي التي تحول اسمها إلى "صنهاجة Senhaja" بمفعول النطق العربي الذي اعتمده المؤرخون. الصيغة الأمازيغية لاسمها هي "ئزناكن، Izênagen". وهي جمع لمفرد صيغته القياسية هي "أزناك Azênag". ومما يلفت النظر أن اسم "ئزناكن Izênagen" ذكر في مؤلفات الكاتب الروماني " بلينيوس، Plinius" بصيغته

الأمازيغيــة الدالة على الجمع، مع تحريف بســيط فرضته قواعد اللغة اللتينية مــن حيث النطق بالاســماء الاجنبية. (Gaffiot, 1700, Zangenae). ويبقــى للباحث أن ينظر في ما قد يكون من صلة بــين "أزناكَ ج ئزناكن" وبــين "أزنيكَ ج ئزنيكَــن" الذي معناه "الرقعة المعشوشــبة" والذي لا يزال متــداولا في إحدى لهجات المغرب. هل كان مدلول "أزناكَ" و "أزنيكَ" مدلولا واحدا؟ وهل يمكن أن يقرن بالتطور الذي طرأ تدريجيا على تعامل الإنسان مع المجال فــي المناطق المعرضة للتصحــر طوال آلاف الســنين؟ هل أطلق اسم "ئزناكَن" في زمن من الأزمنة على مناطق خصبة محصورة محدودة بين مناطق أخرى تم تصحرها، ثم أطلق ذلك الاســم في ما بعد على ســكان تلك المناطق الخصبة المحــدودة المتوفرة الكلإ والماء والمعرضة جوانبها إلى تصحر يتحيفها شــيئا فشــيئا؟ لماذا احتفظ ســكان "فيكَيكَ Figig" باسم "زناكَا"؟ ألأنهم يسكنون مجموعــة من الواحات؟ هــل كانت الواحات فــي الصحراء، منذ ثلاثة آلاف ســنة، مثلا، أوســع نطاقا بقليــل أو بكثير؟ هل يعني "أزناكَ" أو "أزنيكَ" في أصل مدلوله المجال الضيق (نســبيا) المتوفر المرعى؟

و- "الهرم" في مدلوله الاصطلاحي الهندسي ليس عربي الأصل: هو مصري في الصميم؛ اقتبســته العربية من العامية المصريــة، حيــث كان - وربما لا يزال - يعامل تــارة وكأنه جمع، وتارة وكأنــه مفــرد؛ صيغته الاصلية هــي "ئهــرام - ihram". (Graffe - Plassner). ونقرأ في كتب اللغة المصرية القديمة أن هناك صوتا، بــل حرفا صامتا (consonne) لم تكن قيمته الفونولوجية ثابتة،

هو الحرف الصامت الذي يرسمه المختصون بهاء لاتينية تحتها خط (h). ويقولون إنه ينقلب خاء في بعض الحالات؛ كما يقولون إن النطق بالهاء والحاء يتغير أحيانا. (Lefèbvre, 28). هذا كله يفرض تساؤلا: ألم يكن في المصرية القديمة حرف غين، فيكون هو الذي كان ينقلب خاء، كما يلاحظ إلى اليوم في الأمازيغية: "ئغف ighef = ئخف ixef = الرأس؛ سويغ swigh = سويخ swix = شربت)؟ وهل من المجازفة أن يقال: إن بين لفظتي "ئهرام ihram" و "ئغرم ighrem" علاقة محتملة، بإمكان المؤرخين واللسانيين أن يكتشفوها، إن تعاونوا، وإن كانت هي بالفعل موجودة؟ والشرط الأساسي لكي يبحثوا عنها بنوع من الاقتناع (الموقت) بأنها موجودة هو أن يضعوا نصب أعينهم أهمية "الانجراف" الذي يطرأ عبر الأزمان على النطق بالألفاظ ما لم تدون كتابة، ومدى تطور الدلالات. قليل هو من يعرف، مثلا، أن الرمة قطعة حبل، حينما ينطق بالعبارة المشهورة "أعطاه الشيء برمته" وقليل من يعرف أصل تلك العبارة. وقس على هذا...

VI- فرضية بسيطة يوحي بها هذا الركام من المعطيات الثابتة المحققة وغير المحققة المحتاجة إلى بحث طويل.

الحضارة المصرية القديمة فرع مزدهر لحضارة بسيطة أقدم منها وأوسع مجالا، منشأها ما يسمى اليوم بالصحراء الكبرى، أو جزء من الصحراء الكبرى؛ أنشأها أناسي بيض البشرة في الحقبة "ما قبل التاريخية" الممتدة من أواسط الألف السادس قبل الميلادإلى أواخر الألف الرابع، ثم تقطع مجالها وتجزأ بسبب التصحر المستمر، قبل أن تكون قد بلغت مداها، فورثت عنها مصر زهرتها بفضل ماء النيل، واستثمرتها وجنت يانعها. كان منشئوها في أول أمرهم يجوبون مناطق شاسعة تشمل الصحراء الكبرى، قبل أن تكون صحراء، وتشمل ليبيا ووادي النيل (ليس من المستبعد أن يكون اسم النيل اسما مركبا من حرف الإضافة "ن، n" ولفظة "ئلل، ilell" التي معناها البحر أو النهر العظيم). كان منشئو تلك الحضارة يقتاتون من القنص والصيد والقطاف (ummud)، ثم، في مرحلة لاحقة، من نتاج الماشية التي صاروا يربونها وينتقلون معها. لم يكونوا في حاجة إلى سكن قار، نظرا لاعتدال المناخ. لكنهم، في مرحلة ما من تطورهم شعروا عند دفن موتاهم بضرورة تعليم مكان الدفن حتى يبقى ظاهرا للعيان معروفا. فركموا غلى مكان الدفن ركاما من الحجارة. فكان ذلك أول عهدهم بالبناء، في معناه الأوسع. فكان الفعل "ئزكا" بمعنى دفن وأقبر، ثم بمعنى بنى.

أما الركام المغطي لمكان الدفن فانتشر العمل به وتطور حجمه إلى أن أصبح "بزينا، bazina". فضريحا من نوع "قبر النصرانية"، فهرما كهرم "خوفو Chéops". "الكركور" (أكركور) هو إذن جد الهرم، تضخم حجمه كما تضخم حجم التاج الفارسي وحجم العمامة العثمانية. أما المادة اللغوية "غرم، ghrem" التي اشتق منها "ئغرم ج ئغرمان، ighrem pl. igherman" والتي قد تكون لها صلة بالجذر المصري "هرم، hrm". فيغلب على اعتقادي أنها تدل إما على الاستقرار في السكن، كما يدل عليه اللفظ العربي "حضر"، وإما على التشييد حينما تصبح عملية البناء تشييدا بما يستلزمه من مواد ومن تقنيات.

أما منشئو تلك الحضارة "ما قبل التاريخية" فتفرعت أرومتهم إلى فصائل، وتفرقوا بعد ما تجزأ مجالهم الشاسع بمفعول التصحر. فمنهم من مكث في الصحراء لاجئا إلى الجبال والواحات؛ ومنهم من مكث حيث كان في وادي النيل، فأخذ يتخصص في الزراعة إلى أن توفرت له أسباب العيش الهنيء المواتي لتنشيط الحضارة؛ ومنهم من اتجه وجهة المغرب الكبير منتجعا بماشيته، وبضأنه خاصة، إلى أن عمر ربوع المغرب مواصلا فيها الانتجاع والحياة الرعوية المتنقلة (Gaffiot, 1046, Numidae - Bailly, 1331, nomadia). إلى أن أخذ يستقر استقرارا جزئيا لم يمكنه من ترسيخ أقدم الحضارة بالقوة التي رسخها بها إخوانه المصريون الذين طوروا "أكركور" إلى أن صار هرما هائل الارتفاع معقد الهندسة الداخلية، صارت فيه ممرات "أدبني adebni" سراديب ودهاليز، وصارت فيه الحجارة كتلا من

الصخر عظيمة؛ لكن وجه الشبه بينه وبين "أكركور" و "أدبني" و"البازينا" و"ضريح ميدراسن" هو وجه الشبه القديم: كل من تلك المباني يعلو مكان دفن (أو قتل). لم "يزاحم" نوعها من المقابر، في مجالها الأفريقي الشاسع، إلا عدد معدود من "المطامير" و"الحوانيت" التي سبق ذكرها، والتي لا يوجد لها أثر إلا على سواحل تونس وسواحل شرقي الجزائر. ومما لا شك فيه أن المسيحية فالإسلام غيرا طقوس الدفن وطرائقه، ولم يبق من الطقوس والطرائق القديمة إلا ما ليس له شأن، ك "الكركور"...

سكان الصحراء الكبرى الأصليون، وسكان المغرب الكبير الأولون، والمصريون القدماء، إذن، سلالة واحدة، اختلطوا شيئا فشيئا في العصور التاريخية بعناصر بشرية من سلالات أخرى وفدت من الشرق والجنوب والشمال. لن يثبت هذه الأطروحة أو ينفدها، بصفة حاسمة، إلا بحوث أنثروبولوجية أثرية معمقة وفحوص بيولوجية دقيقة بطريقة "بيرنار و ضوصي، Bernard-Dausset". تلك الطريقة التي تعتمد على فحص سطوح الكريات الحمر من الدم وتبني استنتاجاتها على تصنيف الأشكال الهندسية التي تغطي تلك السطوح (J. Bernard). وباستعمالها قد يعرف حتى من أين جاء المصريون والمغاربة القدماء إلى "الصحراء الكبرى" قبل أن تكون صحراء.

المراجع المشار إليها في نص المقال، بعناوينها الكاملة:

J. Auboyer et A. Aymard, Histoire Générale des civilisations, publiée sous la direction de M. Crouzet, volume I, L'Orient et la Grèce, P.U.F, 6ème édition, 1967.
J. Bernard, le Sang et l'Histoire, Ed. Buchet/ Chastel, 1983.
J. Bernard, le Sang des hommes, Ed. Buchet/ Chastel, 1981.
A. Bailly et E. Egger, Dictionnaire grec-français, Editions Hachette, 11ème édition (1ère édition 1894). (N.B. ces deux auteurs indiquent leurs sources).
A. Boudot-Lamotte, Notes ethnographiques et linguistiques sur le parler berbère de Timimoun,Imprimerie Nationale Française, Paris, 1964.
G. Camps (I), Berbères aux marges de l'histoire, Editions des Hespérides, 1980.
G. Camps (II), les berbères, mémoire et identité, Editions Errance, 1987.
J. M. Dallet, Dictionnaire kabyle-français, Editions SELAF, Paris, 1982.
F. Decret et M. Fantar, l'Afrique du Nord dans l'Antiquité, Ed. Payot, Paris, 1981.
J. Delheure (I), Agerraw n iwalen teggargrent - tarumit, Dictionnaire ouargli-français, SELAF, 1987.
J. Delheure (II), Agraw n yiwalen, tumzabt-tfransist, Dictionnaire mozabite-français, SELAF, 1984.
E. Destaing, Dictionnaire français-berbère, Editions Ernest Leroux, Paris, 1914.
Ch. de Foucauld, Dictionnaire touareg-français, 4 volumes, Imprimerie Nationale de France, 1951.
F. Gaffiot, Dictionnaire illustré latin-français, Editions

Hachette, 1934 (N.B. Gaffiot indique ses sources).
E. Graffe [M. Plessner], Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, G.P. Maisonneuve et Larose S. A., Paris, 1975, volume III, article "haram", p. 177.
H. J. Hugot (I), le Sahara avant le désert, éditions des Hespérides, Toulouse, 1974.
H. J. Hugot (II), Sahara. Dix mille ans d'histoire. Regards sur un paradis perdu, Bibliothèque des arts, 1976.
A. Jordan, Dictionnaire berbère-français, Edition Omnia, Rabat, 1934.
E. Laoust, Siwa, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1931.
G. Lefèbvre, Grammaire de l'égyptien classique, 2ème édition, Ed. Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1955.
M. Taïfi, Dictionnaire tamazight_français, Editions l'Harmattan-Awal, Paris, 1991.

محمد شفيق، أربعة وأربعون درسا في اللغة الأمازيغية، (نحو وصرف، واشتقاق)، النشر العربي الافريقي، الرباط، 1991.